

الهجاء :

الهجاء مثل المديح في تصويره لقيم المجتمع، فسلب المهجو منها، وسلخه من الشخصية التي يعتز بها أي فرد في المجتمع يعني أن هذه الصفات هي الروابط والعوامل المشتركة التي اتفق الناس على كونها مفتاح شخصية الرجل المثلى. من هنا لا بد أن تدخل هذا الفن جملة تغييرات تشمل المعاني والأفكار والصور حين انضوى الشعراء تحت راية الإسلام، ولعل هذا الغرض أول الأغراض التقليدية التي طرأت عليها التغييرات منذ أن استخدم الشعر وسيلة من وسائل الدفاع عن الدين الإسلامي . فكما تصدى المشركون الى هجاء المسلمين والرسول ، أمر النبي ﷺ شعراءه بالرد عليهم . ومن الطبيعي ان يكون هذا الرد فخراً بالدين الجديد، وذماً وهجاء الجهل الكافرين . وكلمة الرسول (ﷺ) : (أهجم وروح القدس معك) مشهورة تبين توجيه الهجاء وجهة جديدة ولعل قائلًا يقول بأننا قلنا في حديثنا عن موقف الإسلام من الشعر بأن الرسول نهى عن الشعر الذي يثلب الأعراس، ويهتك الأستار، فكيف نقول هنا بأنه أمر شعراءه بهجاء المشركين ... نقول ان لا تعارض بين القولين، فالمشركون أعلنوا على لسان شعرائهم حرباً شعواء ضد المسلمين والرسول الكريم، فكان من الطبيعي ان يأمر الرسول شعراءه بالرد عليهم، ولكن ردود هؤلاء الشعراء المسلمين وأشعارهم بدت متفاوقة، فمنها ما تنقض أقوال المشركين وترد عليهم الشتائم والذم، ومنها ما جاء الهجاء فيه بصيغة جديدة حين هجا المسلمون المشركين بالضلالة وقصور التفكير والجهل

ومن الهجاء السائر في ركاب جاهلي كثير من قصائد حسان التي هجا بها قريشاً متبادلاً مع شعرائها النقائض والمهاجاة، فهو يهجو الوليد بن المغيرة هجاء معتمداً على أسس قبلية، لأنه من قريش معتد بنسبه، فما كان من حسان إلا أن يهجو به بأنه من بطون قريش التي لا قيمة ولا شأن لها، وإن هو إلا عبد في قريش التي يفخر بها فيقول :

متى تنسب قريش او تحصل فما لك في ارومتها نصاب

نفتك هصيص عن ابيها لشجع حيث يسترق العباب

وفي مقطوعة أخرى يهدد حسان المشركين بالحرب دون الإشارة الى حرب العقيدة والدين، ويخوفهم بأخذ الغنائم والأسلاب في معركة قادمة، ويذكر فيها غزوة المصطفى لله لهم بسبب ذلك وهي المسماة بغزوة ذي قرد

ويهجو حسان حكيم بن حزام بن خويلد بالجبن في الحرب، ويذكره بأنه هرب يوم بدر وألقى سلاحه، ولعل استمرار حسان في مثل هذه المقطوعات بالهجاء على الطريقة الجاهلية، مردها إلى انه يخاطب أناسا مازالوا تاريخيا في فكر قبل الإسلام أو منتمين إلى عصره في قيمهم التي يعتدون بها أو في المعاييب التي تثيرهم وتغيظهم، فكان هجاؤه قائما على عنصرين عنصر شتم قريش والمشركين بالمعاييب التي تغض من شأنهم في عيون القبائل التي لم تسلم بعد، وعنصر آخر إسلامي يقابل الهجاء الجاهلي، وهو مقارنة حالة قريش والمشركين بحال المسلمين المؤمنين الذين يؤازرهم نصر الله والملائكة ويحيطهم النبي ﷺ بهدى الدين ونور النبوة وتحذوهم الرغبة في ثواب الله وطلب جنته، وبذا يخرج بالهجاء من منظوره الجاهلي الى منظور اسلامي:

لقد لعن الرحمن جمها يقودهم دعي بني شجع لحرب محمد

مشوم لعين كان قدما مبغضا يبين فيه اللؤم من كان يهتدي

على أننا لانعدم في هجائه قيما اسلامية جديدة، وأساليب فرضت عليه وعلى غيره من شعراء الدعوة الإسلامية، حين هجوا المشركين بالضلالة العمياء والجهل عن حقيقة الدين، وتهديد المشركين من ثم بالعذاب في الدنيا والخزي والعقاب في الآخرة، لأن هناك حسابا فثوابا وعقابا . ويهجو قريشا بأنها في استجابتها لدعوة أبي سفيان في حربه للرسول ﷺ إنما تتبع الشيطان أما المسلمون جميعا فانهم يعبدون الرحمن الذي هو أعظم من أن يشرك به بعبادة وثن من الأوثان التي تعبدها قريش، وبذا يقوم هجاؤه على سبيل الموازنة بين عقيدة الدين وجاهلية الجاهلية :

طاوعوا الشيطان اذ اخزاهم فاستبان الخزي منهم والغفل

على أن هذه القيم الإسلامية الجديدة التي دخلت في هجاء الشعراء في عصر الدعوة استمرت في عصر الخلفاء الراشدين، فهذا معاذ بن يزيد بن الصعق يهجو المرتدين بخروجهم على الدين الإسلامي، ويصفهم بالكذب والطمع، لانهم منعوا أداء الزكاة، الفرض الذي وضعه الله تعالى، وتركوا أداء الصلاة، فأى شيء بقي لهم من عقيدتهم:

بني عامر اين الفرار من الله والله لا يغلب

ونجد استمرار هذه العناصر من الهجاء في عصر الراشدين، فيتغنى الشعراء بسلب مهجويهم من كل ما يرفع شأنهم في نظر الناس، أو على الأقل من عناصر الشخصية السوية في المجتمع المسلم . فالحطينة يهجو

الوليد بن عقبة والي الكوفة، ويستغل المبدأ الإسلامي الذي يجب توافره في شخصية ولاية الأمر، وهو التقوى وأداء الفروض، فيحاول أن يسلب مهجوه منهما، فيتهمه بأنه يشرب الخمر وأي أن الوليد أحق الزيدكم ثملاً وما يدري شرب؟. إنه شرب مخالط لأداء الصلاة فهل يحق له بعد هذا ان يبقى واليا على الكوفة :

شهد الحطيئة حين يلقي ربه ا الوليد احق بالعدر

نادي وقد قضوا صلاتهم أزيدكم ثملاً وما يدري

وهناك موقفان رسميان إزاء الهجاء، يضافان الى توجيهات الرسول ﷺ التي مرت بنا، وكلاهما حدثا زمن الخليفة عمر بن الخطاب، وتم بسبب الهجاء حبس شاعر .

الأول : شكوى الزبير بن بدر للخليفة عمر بسبب هجاء الحطيئة له بقوله:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

ويتظاهر الخليفة بفهم البيت فهماً يبعده عن الهجاء فيقول له : اما يرضيك ان تكون طاعماً كاسيا ؟ ويصر الزبير بن علي إنه هجاء . والواقع ان الخليفة يعرف حقاً أنه هجاء، ولكنه اراد تطبيق القاعدة (إدراؤا الحدود بالشبهات) وان لا يقضي على الشاعر بسبب أبيات من الشعر لا تحمل فحشا ولا فسقا . ولما كانت هذه شكوى فعلية مرفوعة الى الخليفة، وصاحبها مصر عليها، فإن الخليفة طلب شهادة حسان بن ثابت لعله يتعاطف مع المدعى عليه، ويدرك العقوبة عنه. فلما شهد حسان بأن ما يسمعه هو أشد الهجاء أمر الخليفة بسجن الحطيئة . ثم استعطفه الحطيئة بعد ذلك بأبيات رقيقة، وقيل إن الخليفة اشترى اعراض المسلمين من الحطيئة بمقدار من المال يكفي حاجته، ولا يتعرض للهجاء . ويشبه هذا الموقف موافقة الخليفة عمر على زيادة أبي موسى الأشعري عطاء الحطيئة بقوله : إنني اشتريت عرضي منه، فيقول له الخليفة : ان كان هذا هكذا، وأنتك حميت عرضك من لسانه، ولم تعطه للمدح والفخر فقد أحسنت .

أما الموقف الثاني، فهو موقف رسمي أيضا . اشتكى فيه بنو العجلان ضد الشاعر النجاشي عند الخليفة عمر بن الخطاب لأبيات شعرية قالها فيهم .وهي رواية طريفة جداً، لان الخليفة حاول في كل بيت من أبياتها أن يحول مفهوم الهجاء الوارد فيها الى مديح إسلامي وبهذا يضمن تخفيف أو حذف العقوبة عن الشاعر، وتوجيهالقوم والشاعر معاً وجهة إسلامية . حين سألهم الخليفة ما قال فيكم ؟ قالوا :

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة فعادى بني العجلان رهط ابن مقبل

حاول الخليفة ان يخفف حدة الهجاء بأن جعله مجرد دعاء فان كان مظلوما استجيب له، وان كان ظالما لم يستجب له، فسكت القوم عن هذا البيت، لأن الذي بعده لا يمكن ان يفهم منه الا الهجاء، فقالوا : ولكنه قال :

قبيلة لا يغدرون بدمه ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر : ليت آل الخطاب هكذا ، محولاً صفة الضعف والذلة التي اراد الشاعر وصم القوم بهما من منطلق جاهلي إلى خلتين يعتد بهما المسلم ويتمنى ان يتصف بهما وهما أمانتهم وعدلهم، ولكن الشاعر ما أراد هذا المفهوم الإسلامي، وإنما أراد الهجاء بمفهوم الجاهليين . فقال القوم: وقد قال :

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الورد عن كل منهل

وهنا يسمع الخليفة مفهوماً للهجاء كان سائداً قبل الإسلام وهو ان القبيلة الضعيفة تخاف القوية، والشاعر أراد أن يقول أن بني العجلان لضعفهم لا يجرأون على مزاحمة الناس في ورود الماء، وإنما ينتظرون حتى ينتهي الجميع، فيشرب الاقوياء الماء صافياً هم ودوابهم، ويشرب الضعاف الماء كدراً . يوضح هذا بيت عمرو بن كلثوم المشهور :

ونشرب إن شربنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطينا

حاول الخليفة عمر ان يوجه هذا المفهوم وجهة اسلامية بان يقول: ذلك أقل للسكاك - أي للزحام - فهذه القبيلة تحب لنفسها ما تحب لغيرها، ولا تزاحم الناس على ورود الماء إثارةً لغيرهم . فقالوا : ولكنه قال:

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعب وعوف ونهشل

فقال الخليفة : أجنّ القوم ،موتاهم، فلم يضيعوهم . وهنا نكون أمام بيت في الهجاء أراد الشاعر ان يصفهم بخبث النفوس، لذا تعاف الكلاب الضارية الجائعة لحومهم لنتنتها وقبحها، بينما حاول الخليفة عمر أن يحول معناه الى مفهوم إسلامي، أو الى مديح . فمن السنة النبوية ألا يترك القتيل في ساحة المعركة، وأن يُسرع في دفن الجنازة اكراماً للميت والاحياء على حد سواء . قالوا: ولكنه قال :

وما سمي العجلان إلا لقيلمهم خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

يريد الشاعر ان جدهم سمي بالعجلان، لأنه كان عبداً مأموراً يؤمر، وينهر، ويعجل، ويطلب منه الإسراع بحلب النوق . لكن الخليفة عمر أراد أن يوجه هذا المعنى الى مديح من مفهوم إسلامي أيضاً شهده المسلمون، وشجعهم الرسول ، وهو ان العمل تشريف للإنسان، وان سيد القوم خادمهم. ولم يرض القوم بهذا التوجيه قائلين: ولكنه هجانا ... أي مهما حاولت توجيه الأبيات وجهة إسلامية لتكون مديحا فهي هجاء . وهنا يبعث الخليفة عمر الى الشاعر حسان بن ثابت فيقر بكونه هجاء . فيهدد الخليفة النجاشي، ويمنعه من قول الهجاء بقوله: إن عدت قطعت لسانك

في هذين الموقفين نجد محاولة الخليفة الجادة في صرف الأنظار عن الهجاء، وتوجيه النفوس نحو الألفة والصفاء وتترسخ فكرة شكوى الناس لدى الخلفاء اذا هجوا هجاءً مقذعاً، أو اذا شتموا شتماً لاذعاً بعد الخليفة عمر ، وكأن الحق العام في الشكوى من الهجاء يصير مشروعاً، ويصبح الخليفة مسؤولاً أمام المشتكين عن رد الظلم الواقع عليهم . وهكذا نجد خيراً عن الشاعر المزرد بن ضرار وأنه هجا قوماً أيام الخليفة عثمان بن عفان فاستعدوا عليه الخليفة فبعث إليه من يأتيه به واعتذر الشاعر عما بدر منه، فقال له الخليفة: إياك وهجاء الناس، فاتعظ وهكذا يصبح الموقف من الهجاء في عصر الخلفاء الراشدين جزء من الموقف العام ازاء الأغراض الشعرية التي لا تتسجم مع التعاليم الإسلامية والمبادئ التي وجه اليها المسلمون .